

# الأوائل

بقلم :  
الدكتور علي محمد عامر

مما يدعو إلى الفسطة أن العرب دونوا تاريخهم بعناية قبل أن  
تساويهم فيها أمة من الأمم ، وفتنوا في ذلك اغتناناً يدمو إلى الدهشة  
والاعجاب ، فالتفوا في التاريخ السياسي الاسفار الطوال ، وبسطوا  
القول في الحديث عن الملوك والقلقاء والافراد والغروب ، ومظاهر  
الحضارة ودرسوا مجتمعاتهم من النواحي المختلفة .

ومع الزيادة الاهتمام بالتاريخ السياسي والحضاري عند المسلمين  
قفزت إلى الأمام تساؤلات ، من كان الأول في العادات والتقاليد  
القديمة وكذلك ألوان المعرفة المختلفة ؟ وكان الجواب يجرى في كثير  
من الأحيان من وحى الخيال خاصة ما يتصل بالأمور ذات الصلة بدم  
الخطبة واليهود القديمة التي تلت ذلك .

وقد حوت هذه اليهود كثيراً من الأساطير التي لا ترقى إلى مرتبة  
الحقائق التاريخية مما توارثته الأجيال وتناقلته الشفاه ، مما جعل منها ميداناً  
غصياً لموضار الاحاديث الضعيفة والاحبار المكذوبة ، التي يدعو فيها أثر  
الخرافة والاسطخار بطريق لا يحتمل النقد العلمي .

والذي يعني في دراسة الاوائل هو كتاب ( الرمانق إلى معرفة الاوائل )  
( ١ ) للسيوطي ، وهو كما يقول مؤلفه : ( كتاب جامع للأوائل المصنف فيه  
كتاب الاوائل للمعسكري وزيت عليه أضافه )

هذا وقد حوى كتاب الاوائل للمعسكري بعض الاساطير التي طالت في  
الكتب التاريخية القديمة ، فنقلها السيوطي كما هي وان استندعنا إلى  
وراثتها .

وكان المؤرخون القدامى يرون أنهم قد برئوا من المسؤولية حين يلقون تبعة هذه الروايات على روايتها ، فكانوا يكتبون بإيرادها مستندة على منتهى أنهم يصنعهم هذا قد تلفظوا أيديهم مما علق بهذه الروايات من خرافة أو شائبا من وضع وكذب .

وكان حشد هذه الروايات التاريخية القديمة - وخاصة ماكان منها من وحى الخيال - أمرا درج عليه كثير من المؤرخين الأوائل ومن بعدهم ، فقد حشد ابن عبد الحكم في ( فتوح مصر ) طائفة من الاخبار الموضوعة التي هي أقرب الى نسخ الخيال منها الى الرواية التاريخية الصحيحة ، كالحديث من سيدنا نوح عليه السلام وأولاده ، وبلاد مصر وقراها التي سميت باسم هؤلاء الأولاد ، وغير ذلك من الروايات التي تقتصر الى التمهيس الفلسفي .

وكذلك فعل المقرئ في افتتاح خطبته حين تحدث عن مصر ولم سميت بذلك .

وكذلك فعل كل من بدأ كتابه في التاريخ بفصل عن بدء الخليقة .

ومما يؤخذ من السيوطي في كتابه ( الوسائل ) أنه لم يقم بتصحيح الروايات الجغرافية التي طافت في الكتب التاريخية القديمة ، فقد نقلها كما هي ، واكتفى بذكرها مستندة الى روايتها كما فعل سلفه ، ومن أمثلة ذلك ما نقله السيوطي فيما يلي :

أول بقعة وضعت من الأرض موضع البيت ، ثم مدت منها الأرض ، وأول جبل وضع على وجه الأرض أبو قبيس ، ثم مدت منه الجبال (٢)

أول من دخل العمام سليمان بن داود عليه السلام (٣)

أول اناس هلكا قريش ، وأول قريش هلكا أهل بيتي (٤)

يضاف الى ذلك أن السيوطي اتبع في كتابه ( الوسائل ) طريقة النقل من الكتب السابقة بصفة عامة ، كما يفعل في كثير من كتبه ، وقد أكثر النقل من ابن الأثير ، والأزرقي ، والاسنوي ، والنقي الكرماني ، والشعالبي ، وابن

الحاج ، وابن حجر ، وابن أبي حجلة ، والغطيب الفسفاوي ، والذهبي ،  
والزبير بن بكار ، وابن سعد ، والشهرستاني ، وابن أبي شيبة ، والصفدي ،  
وابن الصلاح ، وابن عساكر ، وأبي الفرج الاسبهاني ، وابن فضل الله ،  
وابن قتيبة ، والمبرد ، والمزباني والسبيعي ، والمفريزي ، وابن ميسر ، وأبي  
نعيم ، والنووي ، وكثير غير هؤلاء .

ومن هنا اختلف أسلوب الكتاب على حسب المصدر الذي نقل منه .  
واحتجبت شخصية السيوطي وراء الروايات التي يفسر بها ، والنقول التي  
يسوقها عن مصادر المؤرخين .

ومما يكثر من أمر فإن ذلك لا يقلل من شأن السيوطي ، لأن الروايات  
التي اضافها السيوطي على ( أوائل ) العسكري تدل من ناحية أخرى على أن  
السيوطي كان يارعا في جمع الأخبار ، وتعتبر نهاية السيوطي بالحديث عن  
( الأوائل ) في فجر الاسلام وكذلك عن ( الأوائل ) الفاسدة بالدول الاسلامية  
عملا جليلا ، حفل بمادة قيمة ، وبصر يشرعي الانتهاء ، كما تعد تبسييرا  
رائعا عن دراسة النواحي العمرانية والاقتصادية والاجتماعية .

ومما يكثر من شأن السيوطي هنا ، أنه حفظ لنا كثيرا من مواد نقلها  
عن كتب أصبحت مفقودة ، وأخرى مازالت في دور الكتب محفوظة .

هذا والأوائل وما ورواها من بواطن ادارية أو سياسية أو اقتصادية  
أو اجتماعية تحتاج الى مجلدات ومجلدات حتى يمكن استيفاء مبادئها  
الواسعة وجمع أطرافها المتشعبة ، ويكفي هنا أن نورد بعضا من النماذج .  
لكي نتعرف على مدى أهمية دراسة هذه المادة .

## باب الحج

أولا :

تحت هذا العنوان ذكر السيوطي ، أن أول من طاف بين الصفا والمروة  
هاجر أم اسماعيل عليه السلام .

ثم ذكر أن البيت كسى في الجاهلية الانطاع ، ثم كساء النبي صلى الله عليه وسلم الثياب اليمانية ، ثم كساء عمر القباطي ، ثم كساء المعجاج الديباج .

ويستطرد قائلا : إن عمر بن عبد العزيز أول من أمر الناس ليلة هلال المحرم يوقدون النار في فجاج مكة ، ويضعون المصابيح للمعتمرين مخافة السرقة .

وأول من فرق بين الرجال والنساء في الطواف خالد بن عبد الله القسري والي مكة من قبل عبد الملك بن مروان ، وكان قد بلغه قول الشاعر :

يا حبيذا الموسم من موقد  
وحبيذا الكعبة من مشهد  
وحبيذا اللاتي يزاحمننا  
عند استلام الحجر الأسود

فقال خالد : أما انهن لا يزاحمنك بعد هذا ، فأمر بالتفريق بين الرجال والنساء في الطواف .

ويعتبر عبد الله بن محمد بن عمران الطلحي أمير مكة في خلافة هارون الرشيد ، أول من عمل مظلة المؤذنين التي على سطح المسجد ، يؤذن فيها المؤذنون يوم الجمعة والامام على المنبر . وكان المؤذنون يجلسون هنالك يوم الجمعة في الشمس في الصيف والشتاء (٥)

ثم يستطرد السيوطي في حديثه عن الاوائل ذات الدلالة على عادات وتقاليد القدامى الذين عاشوا في الجاهلية وصدر الاسلام ، والتحقيق عن أول نشوئها وزمانه .

وهكذا تلمح من خلال هذه المادة أسماء الرجال الذين طوردوا كسوة الكعبة ، كما تلمح البواث من وراء إيقاد النار في فجاج مكة ووضع المصابيح للمعتمرين ، وأيضا الباعث على التفريق بين الرجال والنساء في الطواف وما إلى ذلك .

## الاسماء والانقلاب :

### ثانيا :

وتحت هذا العنوان يذكر السيوطي أن أول من لقب بأمير المؤمنين عمر ابن الخطاب . وتكاد تتفق الروايات التاريخية في هذا الشأن بأن تلقب عمر بأمير المؤمنين لما جاء على يد مبعوثي عامله بالعراق . وأصل ذلك أن عمر رضي الله عنه يمت إلى عامله بالعراق أن يرسل إليه رجلين عارفين بأسور العراق يسألهما عما يريد . فأنفذ إليه ليبد بن ربيعة وعدي بن حاتم . فلما وصل المدينة دخلا المسجد فوجدا عمرو بن العاص . فقالا له : استأذن لنا على أمير المؤمنين . فقال لهما عمرو : أنتما أصبهما اسمه ؟ ثم دخل على عمر فقال السلام على ( أمير المؤمنين ) فقال : مايدا لك يا ابن العاص ؟ لتخرجن من هذا الثول ! فقص عليه الأمر فأكرو على ذلك . فكان ذلك أول تلقبـه بأمير المؤمنين (٦)

هذا وقد تابع السيوطي دراساته في هذا الموضوع حتى عصره . فهو يذكر مثلا . أن أول من لقب بالأنابك نظام الملك وزير ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي . وذلك حين فوض إليه ملكشاه تدبير المملكة سنة ٤٦٥ هـ .

وتلقب صاحب ديوان الانتقام في مصر بكاتب المر . وهي التسمية التي أطلقت لأول مرة سنة ٦٧٨ هـ في عهد قلاوون على القاضي فتح الدين محمد بن عهد الظاهر . وصار بذلك أول كاتب سر في الدولة المملوكية وغيرها .

كذلك كان الأمير ( شيخو ) أول من لقب الأمير الكبير في مصر . وذلك في سنة ٧٥٥ هـ (٧)

والانقلاب تعتبر أساسا عاملا لمعرفة مكانة الفرد في المجتمع والدلالة على حيثيته . وهي كما يقرر الباحثون : ( تفيد بصفة خاصة في تفهم بعض النظم والاتجاهات التي قد ينفذ ذكرها . أو لاتبز بوضوح في المصادر التاريخية . وتصبح الانقلاب ذات أهمية كبيرة إذا درست نشاطها وتطورها على مدى الأيام في ضوء ما يحيط بها من ظواهر اجتماعية وسياسية ودينية . وما تقدمها

أو لحق بها من ظروف تاريخية عامة ، إذ أنها حينئذ تلقى غسوها من زاوية جديدة على كثير من الأحداث السياسية والاجتماعية في تاريخ الاسلام ( ٨ )

فتلقب مصر رضي الله عنه بأمير المؤمنين يتواءم مع معنى أمير الذي يوحى بالولاية العامة ، وكذا إضافة المؤمنين إليه ، إذ أنها تضي على اللقب الصلة الدينية إلى جانب السمات السياسية والإدارية وغيرها ، وإذا كانت قيادة الجيوش تعني الأمرة عليها ، فإن هذا اللقب يوحى أيضا بأن المؤمنين قد استحالوا إلى قوة حربية ، وبذلك يتواءم اللقب مع فجر الاسلام لما فيه من فتوحات تعني السلطة الحربية إلى جانب السلطة الإدارية ( ٩ )

وإذا كانت ( أتاك ) في نشأتها لقب لأحد كبار أصحاب المناصب في عهد السلاجقة ومن خلفهم ، فقد تحول هذا اللقب في الدولة المملوكية إلى لقب عسكري ، فأصبح يطلق على القائد العام للجيش المملوكي في مصر ، ومن ثم هذا الأتاك بحكم منصبه صاحب النفوذ الكبير والكلمة العليا في الدولة .

وكثيرا ما مهدت هذه الوظيفة لتولي السلطة في مصر ، كما فصل الأمير زين الدين كتيبا المتصوري عندما استبد بالسلطان الناصر محمد بن قلاوون في سلطنته الأولى ، حتى انتهى الأمر بالأتاك إلى إعلان نفسه سلطانا سنة ١٢٩٦/٦٩٦ م ( ١٠ )

وهكذا يعلو بنا المقام لو استعرضنا الظروف التي تقدمت هذه الانقلاب أو لحقت بها ، وانما الذي يعيننا أن نلفت النظر إلى أن دراسة الاوائل سوف تزيل الالتباس عن كثير من الحقائق التاريخية المجهولة ، وهي ولا شك حافلة بمادة قيمة تسترعي النظر والاهتمام .

هذا وقد سبق السيوطي في هذا الفن كثير من المؤرخين ، وأقدم ما نعرف من كتب الاوائل عند المسلمين يرجع إلى بداية القرن الثالث الهجري ، حيث كتب هشام بن الكلبي المتوفي سنة ٢٠٤ هـ مصنفًا بعنوان ( كتاب الاوائل ) ( ١١ )

وفي الفترة نفسها كتب المدائني المتوفي سنة ٢٢٥ هـ مصنفًا بعنوان كتاب ( الاوائل ) ( ١٢ )

كما تناول أبو بكر بن أبي شيبة المتوفي سنة ٢٣٥ هـ في كتابه ( المصنف الكبير ) الاوائل في اتصالها ببدا الخليفة وتاريخ المسلمين وعاداتهم .

ومن الكتب التي استقلت بمعالجة هذا الفن كتاب ( الاوائل ) لأبي حلال العسكري المتوفي سنة ٣٩٥ هـ وهو الكتاب الذي اعتمد عليه السيوطي ولفظه في كتابه ( الوسائل )

ومن ألف في الاوائل أيضا :

اسماعيل بن هبة الموسلي المتوفي سنة ٦٣١ هـ كتب مصنفًا بعنوان ( غاية الوسائل الى معرفة الاوائل ) (١٣)

وبدر الدين محمد بن عبد الله النميشي الشبلي المتوفي سنة ٧٦٩ هـ له مصنف بعنوان ( معاصر الوسائل الى معرفة الاوائل ) (١٤)

وشهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني المتوفي سنة ٨٥٢ هـ له كتاب بعنوان ( اقامة الدلائل على معرفة الاوائل ) - ثم نثر عليه بعد - وقد أشار اليه حاجي خليفة (١٥) وتقي الدين أبو بكر بن زيد الجراعي الحنبلي المتوفي سنة ٨٨٣ هـ كتب مصنفه باسم ( كتاب الاوائل ) مخطوط ببرلين رقم ٩٣٦٨ (١٦)

ومحمد بن علي بن طولون الحنفي المتوفي سنة ٩٥٣ هـ له كتاب اسمه ( عنوان الرسائل في معرفة الاوائل ) (١٧)

وبالإضافة الى هذه الكتب التي ألفت في هذا الفن استقلالًا فهناك مجموعة من العلماء والمؤرخين احتوت مصنفاتهم على فصل عن ( الاوائل ) منهم :

ابن قتيبة في كتابه ( المعارق ) ص ٥٥١ - ٥٥٨ ،

وأبو الفرج بن الجوزي المتوفي سنة ٥٩٧ هـ في كتابه ( تلخيص فهم أهل الأثر ) ( ص ٤٦١ - ٤٦٨ )



وأبو العباس أحمد بن علي التفتشندي السوي سنة ٨٢١ هـ في كتابه  
- صبح الاعشى - ج ١ ص ٤١٢ - ٤٢٦ .

وأخر من ألف في هذا الفن - فيما نعلم - علاء الدين علي السكتاوي  
المتوفي سنة ١٠٠٧ هـ وكتابه ( محاضرة الاوائل ومسامرة الاواخر ) مطبوع .

## المراجع

- ١ - طبع هذا الكتاب في بغداد سنة ١٢٦٩ هـ / ١٩٤٠ م بعنوان ( الوصائل التي مسامرة الاوائل ) هذا وقد ذكر السيوطي في مقدمة كتابه هذا ان الاصول الزائدة التي لم يذكرها المسكري هي مميزة بصورة ( ك ) على اولها ، ثم اشار معترك الكتاب انه لم يجد في المخطوط الذي رجع اليه شيئا من ذلك . وكان قد رجع الى مخطوطة واحدة . هذا وقد انتهى كاتب هذا المقال بتحقيق هذا الكتاب على سبع نسخ خطية بخطها مميز بصورة ( ك ) التي ترمز الى الاصول الزائدة عند السيوطي .
- ٢ - الحديث في الجامع الصغير للسيوطي ( ج ١ ص ١١٢ ) ورمز لقصته .
- ٣ - الحديث في الجامع الصغير ( ج ١ ص ١١٢ ) ورمز لقصته
- ٤ - اورد السيوطي في الجامع الصغير ( ج ١ ص ١١١ ) ورمز لقصته
- ٥ - انظر الاوائل للسيوطي ص ٣٦ - ٣٨
- ٦ - انظر في ذلك : المسكري : الاوائل ورقة ٢٣ ، ٧٤ ، والتفتشندي : صبح الاعشى ج ١ ص ٤١٦ ، والسيوطي الاوائل ص ٢٦
- ٧ - انظر الاوائل للسيوطي ص ٢٦ ، ٢٨ ، ٢٩
- ٨ - حسن الهالبا : الانقلاب الاسلامي ص ٢
- ٩ - حسن الهالبا : نفس المصدر ص ١٩٤
- ١٠ - ابن ابياس : يدائع الزهور ج ١ القسم الاول ص ٢٨٦
- ١١ - ياقوت : ارشاد الاديب ج ٢ ص ٢٤٢
- ١٢ - ياقوت : المصدر السابق ج ٥ ص ٣١٢

١٣ - من هذا الكتاب نسخة بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية برقم ٣٥١ تاريخ

١٤ - من هذا الكتاب أيضا نسخة بمعهد المخطوطات برقم ٤٥٥ تاريخ

١٥ - النقر : كشف الظنون ج ١ ص ١٢٤

١٦ - دائرة المعارف الإسلامية ج ٥ ص ١٦٨

١٧ - منه نسخة بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية برقم ٣٤١ تاريخ

## المصادر

١ - ابن أبياس : محمد بن أحمد العنقي ( ٩٣٠ هـ )  
بدائع الزهور في وقائع الدهور ، الجزء الاول ، القسم الاول والثاني ، دار احياء الكتب  
العربية ، القاهرة سنة ١٩٧٤ - ١٩٧٥ م

٢ - حسن الباشا : الدكتور حسن الباشا  
الاتحاد الاسلامي في التاريخ والوثائق والآثار ، النهضة المصرية سنة ١٩٥٧ م

٣ - السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن ( ٩١١ هـ )  
التوامع الصلير في احاديث البشير النذير ، مصطفى الجبلي ، القاهرة الطبعة الرابعة ،  
الوسائل الي مسامرة الاوائل ، بغداد ١٩٥٠ م

٤ - العسكري : الحسن بن عبد الله ( ٣٩٥ هـ )  
الاوائل ، مخطوط ، المكتبة التوكلية اليمنية بالجامع الكبير بصنعاء رقم ١٨ فتون

٥ - القلقشندي : ابو الميس احمد بن علي ( ٨٦١ هـ )  
صحيح الامشي في صناعة الانتشاء ، المؤسسة المصرية العامة ١٩٦٣ م بصورة عن الطبعة  
الاميرية القاهرة ١٩٢٠

٦ - ياقوت : شهاب الدين ياقوت الرومي ( ٦٢٦ هـ ) ارشاد الارب ، طبعة هندية القاهرة  
١٩٢٣ م

٧ - دائرة المعارف الاسلامية ، كتاب الشعب ١٩٦٩ م

٨ - فهرس المخطوطات بصورة ( التاريخ ) الجزء الثاني معهد المخطوطات العربية .